

التربية.. اهتمام



إنّ في إمكاننا القول: إنّ (الاهتمام) في أمور التربية وفي غيرها يشكل واحداً من أكبر الفضائل الإنسانية، ونحن نعرف من تجاربنا الشخصية: أنّ المسائل المعقدة تذلل وتصبح سهلة حين نهتم بها، ونعرف أنّ الأمور البسيرة والسهلة تصبح صعبة وخطيرة من خلال إهمالها والتوازي في معالجتها، وفي اعتقادي: أنّ تربية الأبناء من القضايا التي تحتاج إلى درجة عالية من الاهتمام واليقظة والمتابعة، فالعالم من حولنا يتغير، وتأثير الثقافات الأجنبية في أبنائنا يزداد، وأبناؤنا أنفسهم يكبرون وينتقلون من طور إلى طور، ومن مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى، ولكلّ مرحلة معطياتها وحاجاتها ومشكلاتها، ونحن مطالبون بوعي كلّ ذلك، وحتى نعيه، ونحسن التعامل معه، فإذا نّا نحتاج إلى الاهتمام، ولهذا فإنّا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنّ التربية اهتمام؛ لأنّه فعلاً لا تربية من غير اهتمام.

وهذه بعض الإشارات السريعة في هذه القضية المهمة:

عالم يتغيّر:

إذا قلنا: إنّ عالمنا يتغير؛ فإنّا لم نفعل شيئاً، لأنّ العالم ما فتئ يتغير، لكن علينا أن نقول: إنّ التغيير في عالمنا يتعرض لانفجار، حيث يخرج التغيير عن النظام الصابط له؛ ليصبح شيئاً شبيهاً بالفوضى العارمة، وإنّ في إمكاننا فهم ملامح التغيير الحادث الآن إذا ملأنا فضيلة الاهتمام بمتابعة التقلبات السريعة الحادثة الآن، وقراءتها من أفق ثقافة تربوية جيدة.

إنّ من المهم أن يدرك الآباء والأمهات أنّا نعيش في ظل حصار تقويم بعملية استبدال واسعة للكثير من القيم، إذ إنّها تؤكد على الجمال والقوة والإثارة والإغراء والمتاعة وإنعاش المزاج والأنانية والمكاسب الشخصية، وتحاول إحلالها في محل الفضيلة والاحتشام والتواضع والتعقل والمشاركة والعطاء...

إنَّ لِدِينَا جِيلًا جَدِيدًا يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيهُ: (جِيلُ التَّلْفَازِ)، جِيلٌ لَا يُرَى عَلَى الْفَضَائِيَّاتِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الدُّعَوَةِ لِلْمُثَلِّ الْعُلَيَا، وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَحِينَ يَدْخُلُ أَبْنَاءُ هَذَا الْجِيلَ فِي مَرْحَلَةِ الْمَرَاهِقَةِ يَكْتَشِفُونَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْمُعْتَقَدَاتِ، وَمِنَ الْقِيمِ الَّتِي تَمَكَّنُهُمْ مِنْ صِيَاغَةِ إِطَارٍ لِلْعِيشِ الْكَرِيمِ، وَلِلْتَّطُورِ الرَّشِيدِ.

إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُفْتَحَ عَيْوَنَنَا جَيْدًا كَيْ نُرِيَ التَّغْيِيرَاتِ الْبَطِينَةِ الَّتِي تُحْدِيَهَا الْعُولَمَةُ فِي بَيْنَانَا الْثَّقَافِيَّةِ، بَلْ إِنَّ الْعُولَمَةَ تَعْمَلُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى صِيَاغَةِ بَيْنَانَاتِ ثَقَافَيَّةٍ جَدِيدَةٍ يَتَرَاجِعُ فِيهَا مَفْهُومُ التَّوَاصُلِ وَالتَّرَاحِمِ وَالْجِيَرَةِ وَمُسَرَّاتِ الْلَّقَاءِ بِالْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَصْدِقاءِ، وَيَتَقدِّمُ مَفْهُومُ الْمُسَرَّاتِ الْشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْمَرءُ فِي أَوْقَاتِ الْعَزْلَةِ، وَخَلْفِ الْأَبْوَابِ الْمُغْلَقَةِ، وَقَدْ وَصَفَ هَذِهِ الْوَضْعِيَّةَ كَاتِبَةً غَرَبِيَّةً حِينَ قَالَتْ: مَنَازِلُ أَنْبِيَّةَ، وَشَوَّارِعُ جَمِيلَةَ وَشَرَفَاتُ مَرِيجَةَ، وَلَكِنْ بِلَا نَاسٍ! نَحْنُ لَمْ نُبَلِّغْ هَذِهِ الْدَّرْجَةَ مِنْ مَوْتِ الرُّوحِ الْجَمَاعِيَّةِ، لَكِنْ لَا أَحَدٌ يَسْتَطِعُ الْقَوْلُ: إِنَّنَا نَتَقدِّمُ فِي اِتِّجَاهِ مَعَاكِسِ لَهُدَى!

اِهْتِمَامُ الْمُرْبِّي بِهِذَا يَمْلِيُ عَلَيْهِ أَنْ يَحَاوِلَ إِنْعَاشِ الْقِيمِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ دَاخِلَ نُفُوسِ الْأَطْفَالِ مِنْ خَلَالِ الْجَوِّ الْأَسْرِيِّ الَّذِي تَتَعَاوَنُ الْأَسْرَةُ كُلَّهَا عَلَى تَكْوِينِهِ، وَمِنْ خَلَالِ اِخْتِيَارِ رِيَاضَ الْأَطْفَالِ وَالْمَدَارِسِ الَّتِي تَرْبِيُ الصَّغَارَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الإِسْلَامِيَّةِ الْفَاضِلَةِ، وَإِنَّ الْغَفْلَةَ عَنْ فَهْمِ مَا يَجْرِيُ حَوْلَنَا سَتَعْنِيُ حَدُوثَ خَسَائِرٍ لِلَّيْسِ هُنَاكَ أَيْ سَبِيلٌ لِلتَّعْوِيمِ عَنْهَا.

الوعي بمسار الأسرة:

إِنَّ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ اهْتِمَامِنَا وَوَعِيَّنَا وَمَتَابِعَنَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْصُبَ عَلَى إِدْرَاكِ الْمَسَارِ الَّذِي تَمْضِي فِيهِ أَسْرَنَا مِنْ خَلَالِ طَرْحِ بَعْضِ الْأَسْئَلَةِ الْمُهِمَّةِ، وَمَحاوْلَةِ الإِجَابَةِ عَلَيْهَا، وَمِنْ تَلِكَ الْأَسْئَلَةِ:

• هل لأسرتنا مسار حيَا تِي وَاضْحَى تَمْضِي فِيهِ، وَهُنَاكَ اِتِّفَاقٌ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ عَلَى مَعَالِمِ ذَلِكَ الْمَسَارِ؟

• هل مَا زَالَتْ أَسْرَتِنَا تَمْضِي فِي هَذَا الْمَسَارِ، أَوْ أَنَّهَا صَارَتْ تَخْرُجُ عَنْهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؟

• هل جَانِبُ التَّعْبُدِ وَالتَّمْسِكِ بِالسِّنِنِ وَالْأَدَابِ الإِسْلَامِيَّةِ يَتَقدِّمُ دَاخِلَ الْأُسْرَةِ، أَوْ يَتَرَاجِعُ؟

• هل مَا زَالَ التَّفْوِيقُ الْدَّرَاسِيُّ لِلْأَبْنَاءِ هَدْفًا وَاضْحَى وَحَاضِرًا؟

• اسْأَلْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ: مَا الشَّيْءُ الَّذِي يَدْعُو فِي أَسْرَتِكُمْ إِلَى الاعْتِزَازِ وَالْفَخَارِ؟

• هل الْأُسْرَةُ تَزْدَادُ تَمَاسِكًا؟ وَهُنَاكَ تَضَامُنٌ قَوِيٌّ بَيْنَ أَفْرَادِهَا؟

هذه الأسئلة - وأُخْرَى مِثْلُهَا - لَا يُلْقِيَهَا إِلَّا الْمُرْبِّي الْمُهَتَّمُ وَالْحَرِيصُ وَالْخَطُوطُ الثَّانِيَّةُ بَعْدَ إِلْقَائِهَا تَتَمَثِّلُ فِي جَمِيعِهَا وَالْتَّأْمِلِ فِيهَا، ثُمَّ مَنَاقِشَتِهَا مَعَ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي مَنَاقِشَتِهَا مِنَ الْأَبْنَاءِ، وَمَحاوْلَةِ الْأَنْتِهَاءِ إِلَى مَلَاحِظَاتِ وَأَفْكَارِ يَتَمُّ تَجْدِيدُ مَسَارِ الْأُسْرَةِ فِي ضَوْئِهَا.

كن قريباً :

إِذَا لَمْ يَعْنِ الْأَهْتِمَامُ بِتَرْبِيَّةِ الْأَبْنَاءِ الْقَرِبَّ مِنْهُمْ، وَالْحِرْصُ عَلَى تَفْهُمِ مَشَاعِرِهِمْ وَمُشَكَّلَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَعْنِي أَيْ شَيْءٍ.

مشاغلُ الْحَيَاةِ فِي اِزْدِيَادِهِ، وَتَكَالِيفُهَا فِي تَصَاعِدِهِ، وَهَذَا أَدَى إِلَى أَنَّ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ وَجَدُوا الْمُسْوِغَ

للانشغال عن أولادهم وأزواجهم، لكن علينا ألا ننسى - أيضاً - أن المشكلات والتحديات التي صار الأولاد يواجهونها أكثر بكثير من السابق، أي في الوقت التي زادت فيه حاجات أبنائنا إلينا كثرة المشاغل التي تصرفنا عنهم!

حين يكون أولادنا صغاراً؛ فإنهم قد لا يحتاجون إلى أكثر من وجه يبتسم في وجههم، ويد تربت على ظهورهم، لكن حين يدخلون في طور المراهقة؛ فإنهم يحتاجون إلى جلسات طويلة، وإلى عناية مركزة وطويلة ومتواصلة.

بعض الأبناء يتعرض لتشوه نفسي صامت دون أن يشعر أحد بسبب الإحباط الذي يواجهه في الدراسة، أو في إخفاقه مع أصحابه وزملائه، أو بعض تجاربه الفاشلة...

القرب من الأبناء يعني: بناء علاقة ثقة ومودة معهم، وهذه العلاقة يتم بناؤها عن طريق التحدث معهم في كل الأمور التي تعنيهم مهما كانت صغيرة وغير مهمة، وحين تقوم تلك العلاقة يبدأ الأولاد في تحدثنا عن القضايا الكبرى والمهمة التي تزعجهم، كما أنهم يبدأون في التحدث عن طموحاتهم وأحلامهم حتى يستفيدوا من خبراتنا وتجاربنا.

تدل شواهد كثيرة على أننا لا نستطيع فهم حاجة الأبناء إلى حضورنا إلى جانبهم واقترابنا منهم إلا إذا تذكرنا ألوان المعاشرة، وأشكال الأسئلة التي واجهناها حين كنا مثلهم، دون أن نجد من يمد لنا يد المساعدة، لكن يبدو أننا معاشر الكبار نعاني من تراجع سريع في الذاكرة، فلا نتذكر الحال التي كنا فيها حين كنا صغاراً!

كثيراً ما تفسد علاقتنا مع أبناءنا بسبب سوء تصريفاتهم معنا، وخروجهم عن الآداب المرعية في التعامل مع الآباء والأمهات، لكن علينا أن نعرف أن عقول الأطفال لا تنضح نسوجاً كاماً إلا في سنوات المراهقة المتأخرة، أو ما بعدها، وإن جزء المخ الذي يُملأ أخيراً هو الجزء الذي يقوم باتخاذ القرار، ويتحكم بالمشاعر، وهو ما يفسر اهتمامات ميل سلوك المراهقين إلى العنف والتخطي، كل واحد من الأبناء يحتاج إلى جلسة خاصة مع والده بين الفينة والفينية، وكل واحدة من البنات تحتاج إلى جلسة خاصة مع والدتها بين الفينة والفينية، وفي تلك الجلسة يتم التحدث في كل شيء ببساطة وسهولة وصدق وصراحة تامة، ولعل من الأمور التي يمكن التحدث فيها الآتي:

نقطة ابن لوضع الأسرة، وما لديها من إيجابيات وسلبيات.

الوضع الدراسي للولد، واتجاهاته العلمية، ونظره للتخصص في المستقبل.

تدينه والتزامه بآداب الشريعة، وصلته بـ - تعالى -، وسعادته، واطمئنانه النفسي، والشعوري.

الأشياء التي تقلقه، وتُدخل عليه النكد والاضطراب.

طموحاته وأماله على صعيد النجاح الشخصي، وبناء أسرة في المستقبل.

في جلسات الصداقة والمفاجحة هذه، يُستَجَبُ دائماً أن تكون عفوية، وتعلوها روح السرور والطرفة والبساطة والتفاؤل والإيجابية، وأن يتحاشى المربى أن يكون فيها أي نوع من القسر والإكراه، حتى لا تفقد معناها، وتصبح عقيمة، إن علينا أن نقاوم دائماً ما يمكن أن نقع فيه دون أن نشعر من المبالغة في النصح والتحذير والتهديد وإثارة المخاوف.

بعض الآباء شُغّلوا بتأمين لقمة العيش لأبنائهم، فلم يجدوا الوقت للتواصل معهم، وبعض الناس مشغولون بتثمير أموالهم، فهم في أسفار شبه دائمة، وفريق ثالث مشغول بنفسه ومتنه وأهواه، وهناك فريق رابع ليس هنا ولا هناك إنّه حاضر، غائب، موجود، وليس موجوداً، فهو بين أولاده ومع أسرته، ولكن التواصل معهم معدوم، فلا يعرف عن أولاده إلا أقل القليل! هؤلاء جميعاً كثيراً ما يفاجئون بفشل أبنائهم في الدراسة، وباصرافهم عن الطريق السوي، ويصحون في الغالب متآخرين، وكثيراً ما يحاولون عمل شيء، لكن يجدون - مع الأسف - أن الفرصة قد فاتت، وأن أوان الرعاية والتحذيب قد مضى، وليس أما مهم سوى الاستسلام، وإن أحبوا فبكاء الأطفال!

فهل نبدأ من اليوم بأخذ العبرة، وإعداد العدة لبناء أسرة أفضل، واهتمام أكبر بفلذات الأكباد؟
هذا ما نرجوه.

الكاتب: أ. د. عبدالكريم بكار

المصدر: كتاب القواعد العشر (أهم القواعد في تربية الأبناء)